المجمع 2 (1431هـ/2010م)، 311-338

التاريخ والفضاء التخييلي في رواية "نداء ما كان بعيدًا" لإبراهيم الكوني

ياسين كتاني

أ) المقدّمة

تهدف هذه الدراسة إلى بحث مسألة توظيف الروائي الليبي إبراهيم الكوني في روايته "نداء ما كان بعيدًا"[1] للتاريخ واستقاء مادّته منه، وتحديدًا فترة حكم أحمد الأكبر القرامنلي على طرابلس ما بين عام 1711 حتى 1745 .

تتعلق الأسئلة التي تطرح نفسها في هذا السياق بالمنهج الذي اتخذه الكوني في لجوئه إلى التاريخ في رواية "نداء ما كان بعيدًا" من بين مختلف اتجاهات وتقاليد الرواية التاريخيّة، وكيفية تحوّل داي طرابلس أحمد بك القرامنلي (الذي حكم نحو 35 عامًا) في الرواية إلى تلك الشخصية الأسطوريّة الغنيّة بالغة التركيب، ماذا أضاف إليها الفن حتى صارت شخصية ملحمية غنيّة ذات أبعاد تراجيديّة؟

لا شك أنّ الكوني أراد من ترهين الحكاية التاريخيّة أن يوقظ الحسّ بالكبرياء الوطني، من خلال ما يمثّله أحمد بك القرامنلي من أسباب، فأحمد الأكبر كان أوّل من حقّق استقلالاً لليبيا عن الغرب من جهة، ونوعًا من الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية من جهة ثانية.

لقد جعل الكوني أحمد بك القرامنلي بطلاً تراجيديًا في الرواية، يسقط نتيجة الزلّة/ الزلات المأساوية التي تقود إلى نهايته وانتحاره، أهمّها عدم إدراكه للحقائق الأزلية الكبرى، وعلى المستوى الفيزيقي جشعه وطموحه الذي لا يستكين وولعه بالنساء.

أحد المحاور الرئيسية التي تستدعي البحث في هذه الرواية هي الصحراء اللغز، التي هزمت الغزاة، وهي بالإضافة إلى ذلك موطن السحر والجمال والأبديّـة، وتبقى خلفية للأحداث والمشاهد والرؤى والمصائر على السواء ومحركًا لها في أحيان كثيرة.

[1] إصدار: المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، 2006 / 470 صفحة

يقف هذا البحث على جماليات التشكيل الفني في هذه الرواية ويحلّل مواطن الألغاز وأسرار "نداء البعيد" (اسم الرواية)، "الوسوسة" التي لا تنفك تتسلّل إلى سمع أحمد القرامنلي، وتداعيات آيات "سفر الجامعة" من العهد القديم المبثوثة في طوايا النصّ.

إنّ النداء، في تحليلنا الأخير هو الحرية التي لا سبيل إليها رغم الجهود الجبارة المبذولة، وهو اليقين والسعادة المطلقة التي لا يدركها البطل، والتي ربما أدرك معانيها متأخّرًا، حينها أسلم نفسه للمقادير منسحبًا من الحياة كما تفيد السطور الأخيرة في الرواية.

أما الإضافات التي أضافها الفن إلى التاريخ فهي ما جعل من هذه الرواية ملحمة، تسجّل فنيًا ملامح شخصيّة مركّبة هي شخصية أحمد القرامنلي وصراعاته الداخليّة النفسيّة، وتسجل من جهة أخرى الوقائع الحربية البحريّة مع الفرنجة والبريّة مع الدواخل الليبيّة، تسجيلاً فنيًّا على مسافة من الأحداث والحروب التي وضعت أوزارها منذ زمن بعيد. لعل من أهمّ هذه الإضافات الفنيّة التي تلاحمت مع الوقائع التاريخية ما نجده في الرواية من إغراق في الفنتازيا، والترميز، وتصوير سُنن الصحراء وشرعتها، والنبوءة والعرافة، وذاك الاستطراد المعرفي الذي يحاصر كلّ خبر وكلّ مشهد وكلّ حدث كما سيأتي.

لقد احتجت من أجل إنجاز هذا البحث إلى مراجعة دقيقة للفترة التاريخية التي تتعامل معها رواية "نداء ما كان بعيدًا" (من سنة 1711 – سنة 1745)، وذلك للوقوف على الحقائق الموضوعية التاريخية قبل أن تمتدّ إليها يد الفنان وتُحدث فيها التحوير والتعديل والحذف والإضافة، واعتمدت في ذلك على بعض المراجع التاريخيّة وعلى رأسها كتاب (شارل فيرو) "الحوليات الليبيّة"، وهو المرجع الأساسي الذي اعتمد عليه إبراهيم الكوني وأشار إليه في الرواية.

ب) العلاقة بين التاريخ والرواية

إن العلاقة بين الرواية كجنس أدبي وبين التاريخ هي علاقة وثيقة جدًا رغم أن الرواية تعتمد على المتخيّل بينما التاريخ يعتمد على وقائع وأحداث واقعية. ولكن المتخيّل يكون فارغ المعنى إذا لم يكن تجريدًا فنيًّا لتجربة اجتماعية تنتمي إلى مجتمع له تاريخ وهوية وثقافة، ولذلك فإن ارتباط الرواية بتحولات المجتمع هو الذي يقيم علاقة وطيدة بين الرواية والتاريخ.

يبحث الروائي في روايته عن هويته وهوية المجتمع الذي ينتمي إليه، وعن مسألة الحاضر والماضي، ويقارن الأزمنة المتعددة التي نسجت حاضرًا معينًا؛ لأن النصّ الروائي وهو يفتش عن هوية معينة يعقد حوارًا بين أزمنة مختلفة، ويكون ذلك شكلاً من كتابة التاريخ، "إذ الأدب والتاريخ يتبادلان المواقع في مرايا متساوية، ورغم هذه المرايا المتساوية، التي لا تفصل بين الأدب والتاريخ إلا لتوحّدهما، فإن الجوهريّ ربطُ الأدب بالتاريخ واعتبار الرواية لا وجود لها إلا في حقل التاريخ التي هي وجه مميز من وجوهه الكثيرة"[2]. وقد عبر فيصل دراج عن هذه العلاقة في موضع آخر حيث يقول: "يتوزع علم التاريخ والرواية على موضوعين مختلفين، يستنطق الأول الماضي ويُسائل الثاني الحاضر، وينتهيان إلى عبرة وحكاية. بيد أن استقرار الطرفين منذ القرن التاسع عشر في حقلين متغايرين لم يمنع عنهما الحوار، ولم ينكر العلاقة بين التاريخ والإبداع الأدبي"[3].

كما عبّر جورج لوكاتش عن التشابه بين الفعاليتين حتى درجة التوحيد بينهما في قوله: "إن جوهر العمل الروائي الأكثر عمقًا يعبر عن ذاته في السؤال التالي: ما هو الإنسان؟

---

[2] دراج، فيصل. **نظرية الرواية والرواية العربية.** 1999: ص179، وأيضًا ص 295.

[3] دراج، فيصل. **الرواية وتأويل التاريخ.** 2004: ص9؛ راجع في هذا المعنى كذلك: وادي، طه. **مدخل إلى تاريخ الرواية المصريّة.**1997 :ص64؛ والشاروني، يوسف. "مصرع الماس وزخم اللعبة الروائية" **القصّة**، عدد 83 ،1996: ص32–36 .

يقول الروائي نظريًا ما يقول به المؤرخ، اتكاء على جوهر إنساني عصيّ على الثبات، يستقيم زمنًا في انتظار انحناء لا هروب منه"[4].

استلهمت الرواية العربية التاريخ وجعلته موضوعها منذ أن عرف العرب الفن الروائي، ويعتبر مؤرخو الأدب جورجي زيدان رائدًا في هذا المضمار حيث كتب اثنتين وعشرين رواية في تاريخ العرب والإسلام. يجعل جورجي زيدان الفن في هذه الروايات خادمًا للتاريخ، فهو قد اهتمّ في الدرجة الأولى بتعليم التاريخ وتلمّس الحقيقة التاريخيّة أكثر من اهتمامه بإحياء الماضي القديم. في مقدمته لرواية الحجاج بن يوسف الثقفي يقول زيدان: "إن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته والاستزادة منه، وخصوصًا لأننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكمًا على الرواية، لا هي عليه"[5].

أما الرواية العربيّة التاريخية التي تهدف إلى إحياء الماضي فقد ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، وهي تختلف جوهريًا عن الرواية التاريخية التعليمية كما ظهرت عند جورجي زيدان. جاءت الرواية التاريخية بعد الحرب العالمية الثانية للتعبير عن حماس قومي يهدف إلى بعث أمجاد الماضي وبطولاته، ويستلهم من هذا التاريخ المعاني التي تدفع إلى الطريق "المستقيم"، وانقسمت الرواية التاريخية في مصر إلى شعبتين، تستلهم إحداهما التاريخ الفرعوني ويمثلها نجيب محفوظ وعادل كامل، والشعبة الثانية تستلهم التاريخ العربي الإسلامي وتكشف باتجاهها عن بداية الخروج من إطار فكرة القومية المصرية الضيقة ويمثلها فريد أبو حديد وأحمد باكثير وجودة السحّار وغيرهم[6].

---

[4] نقلاً عن: دراج، فيصل.2004، ن.م: ص9.

[5] انظر: طه بدر، عبد المحسن. **تطور الرواية العربية الحديثة**. 1968: ص94– 106؛ راجع كذلك: باروت، م. **الرواية والتاريخ– دراسة في مدارات الشرق**. 1991 : ص8.

[6] راجع: طه بدر، عبد المحسن. 1968، **ن.م**: ص398

لقد ذهب محفوظ إلى "مصر القديمة" احتجاجًا على الحاضر وبحثًا عما يضيء وجوهه، "فوضع في الماضي أسئلة من الحاضر، وواجه الحاضر بإجابات مؤجلة. وكان وهو يرحّل الأسئلة والإجابات من ركن إلى آخر، يستدعي رومانسية "الرواية التاريخية" ويطردها في آن: يستدعيها وهو يستولد من زمن الفراعنة فردوسًا مفقودًا، ويطردها وهو يحوّل الزمن الطوباوي إلى سؤال سياسي، فما اقترفته سلطة اليوم المتداعية اقترفته "سلطة مضيئة" من زمن سحيق"[7].

حين سأل رجاء النقاش نجيب محفوظ عن العلاقة بين الرواية والتاريخ، أجاب محفوظ: "في رأيي أن العلاقة وطيدة، فالرواية عبارة عن استعراض للحياة اليومية بكل مشاكلها وقضاياها وأشخاصها. هذا جزء من التاريخ لم يكتبه المؤرخون، ثم إن التاريخ عبارة عن أحداث وأشخاص ورؤية، والرواية كذلك"[8].

ويثور السؤال مرة أخرى، ما الذي يلجِئ الأديب إلى التاريخ أصلاً؟ لماذا يعود إلى الماضي؟

هناك عدة أسباب واتجاهات لعودة الأديب إلى الماضي:

1) الرغبة في إعطاء التاريخ عمقًا آخر لا يستطيعه المؤرخ، كأن يستخدم الروائي ما يراه اليوم من أخلاق الناس ومعاشهم، ويدخل هذه المفاهيم في تصويره للشخصيات التاريخية.

2) استخدام التاريخ الماضي لشرح الواقع وإلقاء أضواء عليه، فمن ثنايا الماضي يصور بعض جوانب الحاضر ليبعث من ذلك الماضي مسائل وآراء لها سلطان الماضي في الإساغة والاحتمال، ولها صبغة الحاضر في جلاء القيم الإنسانية أو الدعوة للتغيير، فيلبس الماضي لباس الحاضر، على نحو تشفّ فيه الأحداث التاريخية عن مسائل الواقع المعاصر.

---

[7] دراج، فيصل. 2004، **ن.م.**: ص134.

[8] **ن.م.**: ص132.

3) إبعاد القارئ عن الواقع المعاصر ليحلّق به في عوالم جميلة، إنكارًا للواقع واسترواحًا منه، وفي هذا الهرب نزعة رومانتيكيّة يمسّ فيها الأديب الواقع مسًّا خفيفًا ليتجاوزه ويغوص في أحلام تتّصل بماض تاريخي[9].

ما هو الاتجاه الذي اعتمده إبراهيم الكوني في تعامله مع التاريخ والمادّة التاريخية في روايته "نداء ما كان بعيدا"؟ هل كانت الرواية التاريخيّة عنده كما يقول برمو (في سياق حديثه عن الرواية السوريّة) "مرآة تسقط الحاضر على الماضي أو مرآة تعكس الماضي في الحاضر عن طريق وصف الماضي وتحديده حسب المهام الملحّة للعهد المعاصر [للمؤلف] في الوقت الراهن؟"[10]، أم أن تناوله يدخل "في إطار جهده للفخر بالماضي التاريخي المشرّف المجيد؟"[11]

الحقيقة أن الكوني لم يحفل باتجاه معين، على وجه الخصوص، من هذه الاتجاهات التي سقناها أعلاه، وإنما استفاد منها جميعًا وإن لم يصرح بها. رؤية الكوني في "نداء ما كان بعيدًا" تصدر عن مفهوم الرواية التاريخية كفنّ أدبي تحدد خصائصه مفاهيم البطل التاريخي الأصل، والشخصية الروائية التاريخية حقيقية كانت أم خيالاً، والبيئة التاريخية، وتفاصيل الحياة التاريخية في إحيائها. "والشرط الضروري الدائم في الرواية التاريخية هو الانسجام بين الأحداث التاريخية الحقيقية والخيالية الفنية، فتقوم الرواية التاريخية كمؤلفة فنية أدبية على أساس مبدأ التاريخية فيها"[12].

---

[9] راجع: كتاني، ياسين. **جامعة** 5 (2001): ص325– 326؛ كذلك: هلال، محمد غنيمي. **في النقد المسرحي**. ص90/89.

[10] برمو، عبد الرحمن. **الرواية التاريخيّة في الأدب السوري المعاصر**. 1996: ص11.

[11] ن.م.: ص10.

[12] راجع: برمو، عبد الرحمن، **ن.م.**: ص12.

ج) الوقائع التاريخية الواردة في الرواية

سأقوم فيما يلي بسرد الوقائع التاريخية قبل أن تمتد إليها يد الفنان بغية الفرز بين الحقيقي والخيالي معتمدًا على مراجع تاريخية، وسأنظر بعد ذلك فيما فعله الروائي إبراهيم الكوني، ماذا أضاف وماذا أغفل وماذا عدّل؟ محاولاً بعد ذلك تعليل وتحليل الأهداف الفنية والأخرى.

ظلت ليبيا في هاوية الصراعات والانقسامات التي لم تتخلّص منها إلا حين تولى أحمد باشا القرامنلي حكم ليبيا عام 1123هـ/1711م، ولقب نفسه بأمير المؤمنين وجعل الحكم وراثيًا في الأسرة القرامنليّة.

اتّصف أحمد باشا بالشجاعة والاقتدار فوق ما عرف عنه من العدل والإنصاف بين الأهالي. ولما بعثت القسطنطينية بأسطول إلى ليبيا لولاية خليل باشا فيها، وقع صدام بينه وبين أحمد باشا فاضطرّت القسطنطينيّة إلى إصدار فرمان سلطاني بتقليد أحمد باشا القرامنلي ولاية ليبيا، وعند ذلك عاد الأمن إلى البلاد وبدأت الأحوال تسير على أحسن ما يكون في عهد القرامنليّة.

قدّم العهد القرامنلي لليبيا إصلاحات كبيرة وجعل اللامركزية مبدأ للحكم، مما أعطى انطلاقًا في العمل والإنتاج فعمّت الحرية في البلاد. وظل أحمد القرامنلي في حكمه للبلاد مدة خمسة وثلاثين عامًا لم يتوانَ خلالها عن البذل والعطاء، وسهّل وصول المياه بالطرق الفنية، وبنى سوقًا واسعة وبيوتًا، وأصلح القلعة، وسهّل للسفن القادمة إلى طرابلس الحصول على الماء.

في عام 1728 هاجم الأسطول الفرنسي المدينة وضربها بالمدافع ليرغم المدينة على الخضوع لمطالبه في الحصول على أموال وتسليم الأسرى الفرنسيين، واستمر الأسطول الفرنسي

بضرب المدينة بالمدافع ثلاثة أيام ولم ينسحب إلاّ بعد أن نفدت ذخيرته. وفي عام 1745 تولى الحكم على إيالة طرابلس محمد القرامنلي بعد وفاة أبيه أحمد الأكبر منتحرًا[13].

ما تقدّم هو، على وجه التقريب، ما تذكره معظم كتب التاريخ عن فترة حكم أحمد باشا القرامنلي، داي طرابلس من عام 1711-1745، وهي كما هو واضح معلومات مقتضبة، غير أن المصدر الذي اعتمده إبراهيم الكوني كان كتاب المؤرخ الفرنسي (شارل فيرو) وهو بعنوان "الحوليات الليبية" بالترجمة العربيّة التي قام بها د. محمد عبد الكريم الوافي، وقد أشار إبراهيم الكوني نفسه إلى هذا المرجع في الصفحة الرابعة من روايته المذكورة.

تميز كتاب شارل فيرو بالتفصيل والتوثيق لكل الحوادث والوقائع التي حدثت في كل سنة (حول) من سنوات حكم أحمد القرامنلي، هذا التفصيل الذي أغنى وألهم إبراهيم الكوني في كتابة روايته التاريخية "نداء ما كان بعيدًا"، لأن في كتاب "الحوليات الليبية" من التفاصيل الصغيرة ما لا يلفت نظر المؤرخين على الغالب ولا يثير اهتمامهم، أما الكوني فقد التقط شذرات المعلومات الصغيرة، التي عادة لا توثّق، وبنى منها سيرة غنية، وألبس للشخصيّة الرئيسيّة تركيبة نفسية فريدة، تجنح إلى التأمّل والتعمّق وأسبغ على القصّة من الخيال واللامعقول تلك الأمور التي وسّعت الفجوة بين واقع التاريخ كما نعرفه وبين صورته كما تظهر في الرواية.

وسنقف فيما يلي عند مجموعة مختارة من أهم التبدّلات والإضافات التي أجراها إبراهيم الكوني في روايته على الأحداث التاريخية.

[13] انظر: السيد، محمود. **تاريخ دول المغرب العربي**. 2000: ص56-57.

د) التبدّلات والإضافات في رواية إبراهيم الكوني"نداء ما كان بعيدًا"

1. حادثة الرسالة التي حملها القرامنلي من أبو مويس

يذكر صاحب الحوليات الليبية حكاية تولي الشاب الباش آغا أحمد القرامنلي لمقاليد السلطة، فيذكر المؤلف كيف أن القرامنلي قد استاء من اغتيال محمود أبو مويس لداي طرابلس السابق محمد داي (ولد الجنّ) رغم أنه كان زوجًا لابنته، وكيف استاء أبو مويس من الكلام الذي كان يقوله أحمد القرامنلي رئيس الفرسان ضده ومن خلف ظهره، وشجبه الاغتيال والاغتصاب لكرسي الحكم، وسخريته من عدم إجادته ركوب الخيل وعدم قدرته على حكم بادية الدواخل. بناء على ذلك فقد قام أبو مويس ــ بحجة إبلاغ قبائل الدواخل بتوليه الحكم ــ بتكليف الباش آغا أحمد القرامنلي مهمة نقل رسالة بهذا الخصوص إلى شيخ غريان. غير أن أحمد، وهو في طريقه إلى تلك المدينة، خطرت له فكرة فتح الرسالة والاطلاع على محتوياتها بدافع حب الاستطلاع وبدافع الحذر والريبة، فاكتشف أنها تتضمن أمرًا رسميًا موجهًا إلى شيخ غريان يقضي بقتله هو بمجرد وصوله إلى هناك، فامتلأ قلبه حقدًا ضد أبو مويس، فاستبدل هذا الكتاب بآخر حرره بخط يده على اعتبار أنه بخط الحاكم الجديد أبو مويس، مفاده أن أهالي غريان قوم مشاغبون وأن الداي الجديد يريد منهم ضمانات تكفل خضوعهم له، ويطلب من شيخهم أن يبعث إليه دون إبطاء عددًا من أكابر المنطقة وأعيانها كي يحتفظ بهم كرهائن[14].

بهذه الخطة ضمن أحمد القرامنلي سخط أهل الجبل ـــ أهل غريان، مما جعلهم يجردون جيشًا منهم بقيادة أحمد القرامنلي نفسه فيغزو طرابلس لينتحر أبو مويس ويُنصّب القرامنلي مكانه.

يحوّل إبراهيم الكوني هذه الحكاية التي وردت في الحوليات الليبية حول الرسالة، إلى وقائع دراماتيكية يغلفها بأسرار غامضة، ويوظف لها الأحلام الكابوسيّة ويغنيها بالمواقف

[14] راجع: فيرو، شارل. **الحوليات الليبية**. 1983: ص350 ــ351.

والتفاصيل التي لم ترد في التاريخ قط، ويطيلها بحيث تبلغ 42 صفحة حتى بداية الزحف إلى طرابلس.

كيف فعل الكوني ذلك؟

يروي إبراهيم الكوني أن أحمد القرامنلي (في بداية الرواية ص 11) يمد يده في جيبه فتخرج أفعى لزجة تقفز من يده وتسقط على الأرض، ومن ثمّ يجد نفسه يمشي على أرض كلها حيّات فيصيبه الفزع الكبير، وحين ينتفض يصحو من النوم فيدرك أنه كابوس مفزع، فيمدّ يده في جيبه ليجد الرسالة بما توحيه من أبعاد جسّدها الحلم. بعد ذلك بقليل يرى على البعد قافلة فيها كبير التجار (الحاج المكني) بصحبة (آهر)، وهو ولي من سلاطين المرابطين قليل الكلام يتحدث بالرموز كوليّ من أولياء الله، يستعين به أحمد القرامنلي لتفسير الحلم المزعج (هذا الأمر لم يرد في **الحوليات** ولا في غيرها). وبعد طول حوار وتجاذب يؤوّل له (آهر) الحلم: "لا يلدغنا إلاّ مال كنزناه، أو نية سوء أخفيناها، أو وصية استهنّا بها" (ص22)، ويأخذ الراوي بعد ذلك في تحليل واستبطان نفسية القرامنلي وردود فعله العاطفية والنفسية، وكيف سوّغ لنفسه الفعل الذي أعقب ذلك. عند هذا التفسير فقط يفطن أحمد القرامنلي إلى الرسالة التي في جيبه من محمود أبو مويس الذي اغتال (ابن الجن). فبيّت عندها أحمد أن لا يسلّم هذه الرسالة لزعيم جبل غريان بعد أن أدرك أنها تحمل أمرًا بقتله، فقرّع نفسه على سلامة نيته وقام بتغيير الرسالة بحيث تحمل الشتائم من أبو مويس إلى شيخ الجبل وترهبه وتتوعده إذا لم يقم بالشروط المطلوبة منه، فحمل القرامنلي هذه الرسالة المزيفة وفعل فعلته في التحريض على أبو مويس، فجيّش شيخ جبل غريان أتباعه بقيادة القرامنلي نفسه وبدأ الزحف صوب طرابلس .

استغرقت هذه الأحداث التي يسوقها (شارل فيرو) صاحب **الحوليات** في صفحتين، بينما امتدت عند الكوني على نحو 40 صفحة لما أحدث فيها من دراماتيكية، وما أدخل عليها من شخصيات غير تاريخية، ولكنه على العموم ظلّ مخلصًا لحوادث ووقائع التاريخ لم يغير منها شيئًا جوهريًّا. فالرسالة وردت في التاريخ والرواية على السواء وكذلك أمر

تزييفها، وكذلك النتيجة التي أدى إليها هذا التزييف والتحريض من أمر الغزو وقلب نظام الحكم وتنصيب أحمد القرامنلي زعيمًا لطرابلس عام (1711).

2. حكاية الولي العراف (آهر) صاحب اللّثام

ترد حكاية (آهر) الولي العراف، الذي يسمى أيضًا (سيدي الصيد)، على هامش سيرة أحمد القرامنلي في الصفحتين الأخيرتين (ص 411/410) من كتاب (شارل فيرو)، وليس له من ذكر في غير هذا الموضع، بينما تحتلّ هذه الحكاية نحو 70 صفحة في الرواية، وما يرد منها في **الحوليات** إنما يأخذه (شارل فيرو) من الروايات التي تتناول ذكر مأساة الابنة الكبرى لهذا الرجل، وهي روايات تستند في الحقيقة إلى الرواية الشعبية[15].

أما إبراهيم الكوني فيتناول في روايته "نداء ما كان بعيداً" شخصية (آهر)، ويجعلها ترافق الرواية منذ البداية، حين حمل رسالته إلى شيخ الجبل لقبيلة المحاميد عندما كان في العشرين من عمره، حتى نهاية أحمد القرامنلي وإصابته بالعمى قبيل انتحاره. وقد راقت شخصية سيدي الصيد لإبراهيم الكوني، فأضفى من خلالها على الرواية غموضًا وأسرارًا تتناسب مع كونه عرّافًا أو وليًّا وفق ما آمن به أهل طرابلس وصحراء الدواخل.

تشير الصفحتان المذكورتان من كتاب شارل فيرو إلى بداية تعرف القرامنلي بسيدي الصيد في أعقاب لجوء أرملة خليل بك إلى الأخير بعد أن قتل القرامنلي زوجها، والقرامنلي متعلق بها يريدها زوجة وهي ترفض. فتلجأ إلى الولي العراف لتستفتيه بالأمر، فينصحها بالموافقة لأن زواجها منه سيؤدي إلى إنجاب ذرية من الأمراء تخبئ لهم الأقدار مستقبلاً زاهرًا. وكان أن تمّ الزواج، ومن حينها احتفظ القرامنلي للولي بجميل لا ينسى وظل يزوره، إلى أن كان في بيته يومًا فلمح ابنته الكبرى وكانت بارعة الجمال، فطلب من الولي أن يرسل معه ابنته لتغدو محظيّة في قصر حريمه. احتج الولي على أوامره ورفض طلبه، فهدده إن لم يفعل ذلك حتى الليلة التالية أن يقضي عليه وأسرته ويخفي آثارهم. ولم

[15] انظر، **الحوليات الليبية**: ص 411.

يجد العراف المسكين مفرًا من إلباس ابنته أبهى الثياب والجواهر، بعد إقناعها باجتراع السمّ قبل الوقوع فريسة لشهوة الباشا العجوز، ووضعها على هودج وتركها بين أيدي ضباط الباشا، واقتيدت إلى قصر القلعة، وأدخلت إلى جناحه، وحين دخل الباشا الغرفة وجدها جثة باردة هامدة، فصعق من الهول، فتملكته حالة من وخز الضمير كادت تودي به، وفي الصباح توجّه إلى حيث سيدي الصيد ليسأله تعليل وفاة ابنته المفاجئ، فأخبره الأب عن أنفة ابنته التي ارتضت أن تتجرع السم من أن تقبل أن تكون محظية في قصر السلطان، وأضاف للباشا بأن أمنيته التي يتمناها على الله أن يحرم الباشا القرامنلي من نعمة البصر، والباشا فعلاً قد ابتلي بذلك قبل وفاته بخمس أو ست سنوات[16]. أما في رواية الكوني، فكما تقدم نتعرف على شخصيه هذا الرجل سيدي الصيد (آهر) منذ الصفحات الأولى في الرواية:

"انتصب قبالته كالشبح محدقًا فيه بعينين جريئتين، ولكنهما عميقتين [هكذا في الأصل] أيضًا، ظلتا تومضان في ضوء النهار بألـق غامض، دون أن يحرك ساكنا؟" (ص19)، وقد تشبث به القرامنلي ليؤوّل له حلمه حول الأفعى التي خرجت من جيبه حين مد يده فيها، وحين تحرر من شرها اكتشف أن الأرض التي يمشي عليها مليئة بالأفاعي (ص21)، وبعد طول إلحاح يؤوّل له الحلم: "لا يلدغنا إلا ما كنزناه أو نية سوء أخفيناها، أو وصية استهنّا بها" (ص22)، وعندها يفطن القرامنلي إلى الرسالة التي في جيبه من محمود أبو مويس، داي طرابلس الجديد، وهي الرسالة التي بعثه بها أبو مويس إلى زعيم جبل غريان شيخ المحاميد، فتح أحمد الرسالة بعد تفسير العراف لحلمه، فوجد وصية أبو مويس لزعيم الجبل أن أقتل حاملها فورًا.

ونلتقي بالولي العراف، سيدي الصيد، مرة أخرى بعد فترة من الزمن حين غدا أحمد القرامنلي داي طرابلس بعد دحره لأبو مويس، والناس تأتي إليه، أعيان المدينة وأشياخ الضواحي وزعماء القبائل، كلهم يأتون لمبايعته باستثناء صاحب النبوءة الوليّ الذي أنقذه

[16] **ن.م**.: ص 409–411.

وأوصله إلى مكانته، فيذهب القرامنلي للبحث عنه فيلقاه على رأس جبل، ويدور بينهما حديث مشحون عبّر فيه السلطان عن عدم رضاه من إحجامه عن حضور المبايعة، ونرى الولي يرفض عرض السلطان بالإحسان إليه مقابل الخير الذي أصابه من نبوءته (انظر من ص 59-68).

هذه المواقف لا يرد ذكرها على الإطلاق في كتاب **الحوليات الليبية**، الذي ذكر الكوني أنه اعتمد عليه في الحقائق التاريخية في تصدير روايته (ص4)، كما لم يرد ذكر نصيحة الولي للقرامنلي حول قصة عشقه لزينوبا (انظر: ص129-132)، كما لم يرد ذكر وساطة سيدي الصيد (آهر) لدى القرامنلي لنجدة علي المكني ويوسف المكني (القسم الخامس، الفصل 13)، وكذلك مساعدة (آهر) للقرامنلي في تسخير الريح وإثارة زوبعة في وجه رسول الآستانة (القسم الخامس، فصل 15)، كذلك الرؤى الكابوسيّة التي كانت من نصيب (آهر) الذي استشعر في الحلم أنه ينزلق في جوف التنين، وأنه يترتب عليه المغادرة إلى الصحراء (القسم السادس، فصل 9) وكان هذا الكابوس إرهاصًا لما سيحدث بعد ذلك، فلا نجاة من جوف التنين الذي هو القرامنلي نفسه صاحب السلطان.

لكن الحكاية المطولة هي حكاية شهوة القرامنلي في امتلاك ابنة الولي الكبرى بعد أن لمحها في بيت أبيها (وهي حكاية تطول عما ورد في ص 410-411 لدى شارل فيرو)، فيقع في غرامها ويخاطب والدها: "أنا مخلوق عاشق وترياقي بين يديك" (ص349)، وتقع هذه الحكاية لدى إبراهيم الكوني في أربع عشرة صفحة (ص 349-363)، وقد أغناها الكوني بحوار في غاية الإثارة والدراماتيكية.

شخصية (آهر) إذن شخصية لها وجود حقيقي، رغم ما ينسب إليها من حكايات شعبية نقلها فيرو كحكاية وقوع القرامنلي في غرام ابنة آهر الكبرى، ورغبته في جعلها محظية له انتهت بانتحارها بالسم. لكن الكوني أخذ تلك الشخصية التي لها وجود حقيقيّ، وألبسها بحلة من الغموض وأودعها سرّ الصحراء، فهذا الولي المرابط قد ألهم الكوني في نسج حكايات أخرى حوله ليس لها سند تاريخي، فيجعل القرامنلي يعود إلى آهر كلّما

احتاج إلى شيء أو ضاق صدره بشيء بغية وعظه وكشف طالعه وتحذيره ومساعدته في حلّ أزماته.

الصحراء هي رمز مستغلق له أبعاده، و(آهر) العراف كان دائمًا يؤثر الصحراء، وفي أحلامه كان يناديه منادٍ أن يترك طرابلس ويذهب إلى الصحراء، ولكن إصرار زوجته على البقاء جعله في النهاية يدخل جوف السلطان/التنين، ويفقد ابنته الجميلة التي انتحرت بدافع العزة والكرامة.

3. القضاء على الإنكشارية

قام القرامنلي في بداية عهده في الحكم بالقضاء على الجند الأتراك (الإنكشارية) والتخلّص منهم، بهدف تعزيز سلطانه والتفرد بالحكم، فقد كان الجند الأتراك يد الدولة العثمانية الطولى للسيطرة على الأقاليم المختلفة، ومنها بطبيعة الحال طرابلس.

حكاية القضاء على الإنكشارية هي نموذج آخر لما يقوم به الكوني من إشباع وإثراء للواقعة التاريخية التي وردت في كتاب شارل فيرو، وتوسعتها على نحو يتدفق حيوية وإثارة وتشويقًا.

استفاد شارل فيرو في عرض حكاية اغتيال الأتراك (الإنكشارية) من كتاب ريتشارد توللي[17]، والذي يحكي عن الوسيلة التي اعتمدها أحمد القرامنلي في تغيير نظام حكم طرابلس تغييرًا جذريًا من دون وقوع أي اضطراب، حيث دعي العسكر الأتراك، وهم يزيدون عن عدة مئات، لحفلة باذخة في قصره القائم قرب المدينة، وقام حراسه بخنق 300 من هؤلاء بمجرد ولوجهم لسقيفة القصر، وكانت سقيفة مستطيلة للغاية وتطل من جانبيها غرف صغيرة مظلمة وأخرى سرية اختفى فيها الحراس، وطفق هؤلاء يغتالون

[17] انظر: **الحوليات الليبية**، حاشية (1): ص361.

الأتراك الواحد تلو الآخر فيما كانوا يعبرون السقيفة ثم يبادرون في الحال إلى إخفاء جثثهم بحيث لا يلاحظ القادم التالي منهم شيئًا، ولم ينج من المذبحة سوى نفر قليل[18].

هذا الخبر الذي ورد في صفحة واحدة في **الحوليات**، استغرق في الرواية عند الكوني ثلاثة فصول (راجع القسم الثاني، فصل 5،6،7)، ويضفي الكوني سحرًا خاصًّا في القصّ الممعن في التفاصيل: "في الساعة التي أقبل فيها كبيرهم ممتطيًا صهوة فرسه الشهباء، وترجّل ليتخلى عن لجامها لسائس الخيل الأحدب الذي هرع لملاقاته في الفناء المقابل للقصر ليتولى أمرها، كان أحد الخدم ينحني في الباب إكبارًا لمقام كبير الضباط ويهرع بدوره ليساعده في خلع سيفه المهيب المرصع بالجواهر الملونة، بمقبضه الذهبي البارز من غمد منمنم بالأحافير والمرشوش بماء الذهب.." (ص80).

هذا التفصيل في الوصف وتفنين الحكاية هو من صنعة الكوني، وقد أبدع في تصوير الخوف الذي اعترى الضابط وهو يسير إلى مصيره (انظر: ص82 وما بعدها)، إنه صنعة الفن الذي ليس للتاريخ شأن به: "استلّت يد المجهول سيف الأساطير من غمده، فلمع نصله الشّره في ضياء الغسق قبل أن يطير في الهواء ليغيب في صدر الإنكشاري الشقي في ومضة خاطفة كأنها البرق (ص84).

لقد سقنا أعلاه في شيء من التفصيل ثلاثة نماذج من تصرف إبراهيم الكوني في الأحداث التاريخية، وتوسعه فيها لتكتسب في الرواية حياة جديدة ديناميكية مليئة بالحيوية تعين الروائي على تعميق التجربة التاريخية لتغدو إنسانية تنبض بالحياة. ومن ناحية أخرى، يكسب شخصية القرامنلي أبعادًا ملحمية كما سيأتي، ولعله في ذلك يمجد تاريخ وطنه ليبيا ويوسع دائرة التعرف بها في جميع أقطار الوطن العربي، ويقدّم هذا التاريخ المجيد للمواطن العربي مغلّفًا بهالة من السحر والجاذبيّة والعجائبيّة (انظر أدناه البند هـ).

[18] **ن.م.**: ص362.

4) أمثلة أخرى

وفي الحقيقة، لا يقتصر توسيع رقعة الحادثة التاريخيّة وتدوير الشخصية وإكسابها تركيبة نفسية وأبعادًا فلسفية أو درامية أو غيرها على ما سقناه آنفًا، بل يتعدى ذلك إلى ما لا يحصى من تصرّفات وتحوير للأحداث وتضفير المشاهد بالنظرات التأمليّة الفلسفيّة، ولا يعدو أن يكون ما سقناه نماذج مقنعة للتمثيل. وهناك أيضًا، فوق ما تقدم، قضية زينوبا أرملة خليل بك الأرناؤوطي، وسعي القرامنلي إلى الزواج منها بعد قتله لزوجها، وتحتل هذه الحكاية في الرواية حيّزًا ملحوظًا (انظر الفصول 4،5،6 من القسم الثالث). وكذلك حكاية (مسّي) ابن أحمد القرامنلي بالتبني، والذي يرد في كتاب **الحوليات الليبية** باسم (البك عبد الله) (ص 412)، وهو يرد في هذا الموضع فقط في سياق الحديث عن انتحار أحمد القرامنلي بحضور ابنه المتبنى، أما في الرواية فيظهر في مواضع كثيرة، ويبدو شخصية هامة أحبه أحمد القرامنلي حبًا يفوق حبه لأبنائه (راجع، القسم السادس من الجزء الثاني، وانظر الفصول 1،4،8،9 من القسم الثامن، وفصل 7 من القسم التاسع). ومن ذلك أيضا حكاية علي المكني ويوسف المكني وزعيم المحاميد، والناصر أمير واحات فزان وحلّومة العلجية وإلى ما يضيق المجال عن إحصائه من الأسماء والشخصيات والمواقف والمناظر، من صحراء وبحر وجبل وعادات وتقاليد وشعوذات وأساطير وغيبيات تحتشد في الرواية لتصنع حياه تضجّ بالحركة والعجائبيّة.

ونختم هذا الفصل بإضاءة الاختلاف الواضح بين سرد (شارل فيرو) عن مجريات الحرب، التي وقعت بين القطع البحرية الفرنسية وبين إيالة طرابلس من جهة، وبين رواية إبراهيم الكوني لهذه الأحداث من جهة ثانية، ففي حين يعظّم (شارل فيرو) من أمر الدمار الذي أحدثته المدفعية الفرنسية في المدينة، والتي كانت تصدر عن البوارج الحربية قبالة الشاطئ الطرابلسي في يوليو 1728، فإن الكوني في روايته يذكر أن مدفعيات القرامنلي كانت تردّ، وأن البلاد كانت تتهيأ للحرب في حالة الإنزال، حتى أن زعيم المحاميد رغم ما حصل من خصام بينه وبين القرامنلي، أتى هو الآخر على رأس جيش

ليفاجئ القرامنلي بنصرته له. أما السفن فقد بدا أنها انسحبت إلا أنها توجهت قرب سواحل تاجوراء حيث كان زعيم المحاميد مرابطًا وقد تمت عملية الإنزال، فسحق معظم قوة الإنزال وهرب الباقون إلى سفنهم (انظر القسم السابع، الفصل17). هذه الأحداث، لا سيّما عملية الإنزال وسحقها، لم يذكرها شارل فيرو رغم أنه المصدر التاريخي المعتمد لإبراهيم الكوني كما يظهر من تصديره المذكور. كما أن الأدميرال الفرنسي يعرض الصلح على القرامنلي، ويستغرب الأخير أن يكون من هُزم هو من يعرض الصلح على الآخرين، وأنه (القرامنلي) لن يعقد صلحًا حتى آخر الدنيا مع الفرنسيين، فتنسحب في غداة اليوم التالي البوارج الفرنسية من أمام يابسة طرابلس (ص 404).

إبراهيم الكوني إذن، بخلاف مرجعه الوحيد (إلا إذا كان له مصدر آخر لم يشر إليه)، يتحدث عن إلحاق هزيمة بالغزاة الفرنسيين. ويؤكد الكوني ذلك في روايته من خلال ما تلا ذلك الغزو/الانتصار، حين أخذت الدول الأخرى تخطب ودّ إيالة طرابلس وتوقع المعاهدات التجارية معها، فأصبحت طرابلس "بعبع" ذلك البحر، فملك هولندا والنمسا ونابولي وجنوة وصقليا يرسلون الرسل ويطلبون السماح بفتح قنصليات، وفرنسا خسرت كثيرًا جرّاء القطيعة والحرب التي خاضتها، فأصبحت سفنها نهبًا لا لليبيا وحدها وإنما للجزائريين والتونسيين، مما حدا بلويس الخامس عشر أن يرسل الوسطاء بنيّة عقد معاهدة الصلح، في الوقت الذي استعد فيه القرامنلي لإرسال وفد إلى فرنسا للتفاوض حول إحلال السلام، كان رسول السلطان قد حلّ في ميناء (قصر أحمد) يطلب الانتظار حتى يبعث الفرنسيون رسلهم لا العكس.

وبعد جهود سنتين رست في 1731 أربع سفن فرنسية في ميناء طرابلس حاملة الماركيز (دانتان) لحضور مراسم توقيع معاهدة الصلح، وقد أهدى (دانتان) للقرامنلي مسدسًا موشّى بالذهب، وبذلك يتحول العدو إلى صديق (راجع الفصول 18، 19، 20 من القسم السابع).

يختلف ما تقدم بشكل واضح عمّا ورد في **الحوليات الليبية**، فيصور شارل فيرو ما حدث أنه هزيمة ساحقة لطرابلس، كما يتحدث عن السنوات التي تلت الحرب إلى حين توقيع

معاهدة صلح 1731 أنها أتت بعد ضعف طرابلس المذلّ ونتيجة التهديدات الحربية الجادة التي أنذرت بها فرنسا[19].

لا شك أن الكوني كوطني ليبي أحدث تغييرًا في روايته بالروح العامة التي سادت تلك الفترة، من روح انهزامية جراء غزو البوارج الفرنسية، وما تلا ذلك من ملاحقة القطع البحرية الفرنسية بعد الغزو بسنوات للقراصنة الطرابلسيين مما اضطرهم لتوقيع معاهدة صلح، إلى روح منتشية بالظفر قالبًا الأجواء إلى أجواء انتصار. وهو لم يغير في الأحداث الجسيمة والوقائع الحربية وتسلسل الأحداث، ولكنه غيّر في المشاعر التي جعلها جذلة تهلّل للانتصار (وإن لم يحدث ذلك الانتصار كما تفيد المراجع، وكما تفيد الحوليات، مرجع الكوني المعتمد) وذلك لدوافع وأسباب وطنية فيما نعتقد.

أساليب التوظيف:

اعتمادًا على عيّنة النماذج التي قمنا بتحليلها فيما تقدّم، ومن خلال استقراء دقيق لنصوص الرواية، نخلص إلى أن الأحداث التاريخيّة في رواية "نداء ما كان بعيدًا" تتضافر مع أساليب السرد الحكائي والتخييل. تسوق الرواية المادّة التاريخيّة إليها ثمّ تُخضعها لقسريات النوع الروائي، فتفكّكها وتعيد صياغتها حسب أساليب الكوني وطاقاته التخييليّة، محوّلة التاريخ إلى ملحمة روائية يندمج فيها الخطاب التاريخي والخطاب الأدبي، ما يُرى مع ما يتراءى، على نحو يصعب معه التمييز بين الواقعي والمتخيّل.

وتتنوّع تقنيات هذا التضافر، فحينًا يبدأ الكوني من الفانتازيا لينتهي إلى الحادثة التاريخيّة المتعيّنة، وحينًا يبدأ من الواقعة التاريخيّة ويشتطّ به الأمر إلى التهويم وشطحات الخيال والتأمّل، فحكاية الرؤيا الحلميّة الكابوسيّة (ص11 وما بعدها)، على سبيل المثال، تندرج في التقنيّة الأولى– من الفنتازيا إلى الحادثة التاريخيّة، فبعد الولوج في عالم أحمد القرامنلي وسبر مشاعره وهواجسه، وحكاية الحيّة التي تسرّبت من جيبه بالإضافة إلى

[19] راجع: ص 395–401 من **الحوليات الليبية**.

الحيات الأخرى التي ملأت المكان، تؤول هذه الهواجس والأخيلة إلى الحادثة التاريخيّة بتكليف أبو مويس للقرامنلي بنقل رسالة إلى شيخ المحاميد وما أعقب هذه الحادثة من أحداث جسيمة أخرى ترتّبت عليها (أنظر أعلاه: بند د–1).

ومن مثل هذه التقنيّة التي تبدأ من الخيال أو الحلم حكاية (آهر)، الذي استشعر في الحلم أنه ينزلق في جوف التنين (القسم 6، الفصل 9)، وهو حلم يفضي إلى ما حدث بالفعل من وقوع (آهر) فريسة لصاحب السلطان القرامنلي وما لاقته ابنته الكبرى من سوء المصير من جرّائه.

أما تقنيّة التضافر الأخرى بين التاريخي والتخييلي، فهي تلك التي تبدأ من التاريخ لتنتهي بالتهويمات والشطحات الصوفيّة والتأملات. من ذلك، على سبيل المثال، (الفصل8، القسم6)، فالسفن ترجع من غزوات البحر حاملة أسخى الغنائم من سفن تجارية وحربية وأسرى. ومن الحدث التاريخي ينزلق الفصل إلى خروج القرامنلي على فرسه يفتش عن شيء ما أسماه "النداء"، فيفتش عنه في الأهوال وفي السلطان وفي كلّ شيء ولا يعثر عليه وإن كاد، وكذلك حوار الشبح (القسم8،الفصل1، والفصل 4، القسم9) الذي ينتهي ببحث القرامنلي في خلوته عن الأحداث الجسيمة التي عاشها دون أن يفلح بالفوز بالوسوسة وسرّ النداء.

هـ) الموتيفات والرموز :

ثمة موتيفات ورموز هامّة تتضافر في رواية الكوني "نداء ما كان بعيدًا" مع وقائع التاريخ، وهي الصحراء والنداء البعيد و"سفر الجامعة". وهي موتيفات ورموز تمنح الرواية بعدها الفلسفي والدلالي، وتجعل من أحداث التاريخ، رغم هيمنتها، مجرد وجه من وجوه هذه الملحمة الروائية.

1. الصحراء و"النداء البعيد"

يهيمن موتيف الصحراء على معظم أعمال إبراهيم الكوني الروائيّة والقصصيّة، وذلك لما في الصحراء من صور تخييليّة ثريّة تعزّز الإلهام بما توحيه من عمق و"خصائص فريدة كالاتّساع الهائل لمدى الرؤية، وجماليات التدفّق الضوئي، وزوغان الأبصار [...] فالصحراء أكثر بقاع اليابسة اتّساعًا، وأكثرها صلة بفكرة اتّساع المكان واتّشاحه باللامحدوديّة والأبدية"[20].

العبارات الأخيرة في المقتبس أعلاه: "الأبديّة" و"المطلق" و"اللامحدوديّة"، هي عبارات حميمة لدى الكوني، وترد عنده كثيرًا في سياق الصحراء وميتافيزيقا المكان، لذلك فإنّ الحديث عن الصحراء في رواياته المختلفة حديث ذو شحنة صوفيّة وبعد روحي مغلّف بالرمز والرؤى الفلسفيّة على نحو غير مألوف عند غيره ممن تناولوا موضوعة الصحراء في أدبهم، لأن الصحراء تعني بالنسبة للكوني فيما تعنيه الوطن. وإلى ذلك يستقي عالم الصحراء عنده من الأساطير والتعاويذ السحريّة والرقى– عالم غرائبيّ يسكن على تخوم الخيال والواقع.

تنفتح رواية إبراهيم الكوني "نداء ما كان بعيدًا" على مشهد يقود القارئ فيه إلى عالم الصحراء المسكون بحكايات غريبة، وبأساطير تثير الخيال، وبرموز تستفزّ الذهن لاستكناه دلالاتها– عالم موحش بقدر ما هو جذّاب.

تقول الناقدة زينب عسّاف في مقالتها عن الصحراء في رواية الكوني: "هي الصحراء وقوانينها الخاصّة، يأخذنا إليها الكاتب الليبي إبراهيم الكوني مرّة أخرى. الصحراء التي تحوّل كلّ شيء إلى كنز أو إلى لعنة أو إلى كليهما معًا! الصحراء الليبيّة وجارها البحر، وعلاقة الكرّ والفرّ، الحبّ والكراهية التي تجمع بينهما، هما عصب رواية نداء ما كان بعيدًا. لكنّ القصّة ليست رتيبة، سائرة على وقع المدّ والجزر، بل ضاجّة ببشر لا يسيّرهم

[20] صالح، صلاح. **الرواية العربية والصحراء**. 1996: ص 6.

غير نداء ناء، هو نداء الترحال للصحراويين ونداء البحر للقراصنة. في اختصار أكثر، هو نداء الحريّة، البحث المضني عن النفس، الذي لا ينتهي إلا بهلاكها"[21].

وإذا كانت الصحراء قاحلة قاسية بطبيعتها وطقوسها، فإنها غنية بعالمها وفضائها الواسع، وبطهرها الذي يسمو على الدنس المادي ويبتعد عنه. يقول الكوني على لسان الراوي: "أما الصحراء فهي ركن الدنيا الوحيد الذي يحتقر الذهب ويقف معه موقف العداء منذ الأزل، لأن عملته الحرية وليس الذهب [في حين] المدينة هي الطُعم الذي يغوي ضعاف النفوس ليستبدلوا سلاح الحرية بأدوات العبوديّة" (ص301). فالصحراء، على بساطتها وبدائية مجتمعها، تحمل الكثير من الرموز والقدسيّة للإنسان، لقيمه، للأصالة والصدق، للوفاء والمروءة وإنسانيّة الإنسان.

ثمة شواهد كثيرة في الرواية على مفهوم الحرية الذي ترمز إليه الصحراء: "أهل الصحراء لا يخرجون من صحرائهم إلا ليختنقوا. ولهذا السبب يطاردون الأعداء حتى تخوم المياه. بعدها يولّون الأدبار كأنّهم يفرّون من الوباء [...] يفرّون إلى صحرائهم ليتنفسوا. يفرون إلى صحرائهم ليحيوا. لأنهم كما يقولون ملّة معجونة من ضياء الشموس الصحراويّة الخالدة [...] ملّة الصحراء تستطيع أن تحتمل أيّ جور إلا الجور الذي يؤدي الى العبوديّة. ساعتها تستيقظ فيها قوّة جنونيّة استطاعت دائمًا أن تنزل الهزائم بأعدائها" (ص44/43).

الصحراء في عرف الراوي هي المتنفّس وهي الحريّة، هي صنو الحياة، وهي بهذا المفهوم تتساوق مع (النداء) الذي ما انفكّ القرامنلي يصغي إليه، شيء يشبه (الوسوسة) يأتيه في النوم وفي الصحو، ومن أجلهما جرّد سيفه على مدار 35 عامًا هي سنوات حكمه في محاربة الأعداء من الخارج والداخل سعيًا وراء الحريّة والمجد وندائهما– نداء البعيد الذي سمّيت الرواية باسمه.

---

[21] انظر: عساف، زينب. "الصحراء بوصفها كنزًا": **معابر**. كانون الثاني (2007)، راجع الموقع الإلكتروني: http://maaber.50megs.com/issue_january07/books_and_readings6.htm

ويتضافر الرمزان: الصحراء والنداء، رمزا الوطن، ورمزا المجد والحرية، مع وقائع تاريخ أسرة القرامنلي وعالم الرواية التخييلي، ويرتبطان بالدوافع الوطنيّة التي تكمن وراء هذه الملحمة الفنيّة. فالصفاء والطهر والإباء والمنعة على الغزاة الأعداء، إنما هي صفات الوطن ليبيا، ولهذا كانت الصحراء لدى الكوني بمثابة المعبود، مصدر النقاء والسموّ، ولهذا أيضًا يغرقها بكلّ ذلك الحبّ.

فيما يلي شواهد أخرى من الرواية على توحّد رمزيْ الصحراء والنداء للتدليل على مفاهيم الوطن، المجد والحريّة وارتباطهما بالأبديّة:

أ) "كلّما جرّته الأقدار جنوبًا، ووجد نفسه في أحضان الصحراء، استولت عليه الدهشة، واستيقظ فيه حنين مجهول. لم يكن إحساسه الخفيّ حنيناً، ولكنّه وسواس أقوى من الحنين. إنّه نداء!" (ص15).

ب) "الصحراء خلاص لا يدريه إلا ذوي [هكذا في الأصل] الألباب. الصحراء وصيّة الوصايا لأنها الرسول الأنبل من كلّ الرسل، لأنّها .. لأنها تحمل العنقاء في عبّها اسمها: الحريّة! هكذا خاطبه النداء. هكذا فسّر الطلسم" (ص17).

ت) "إنه النداء البعيد الذي شاء القدر ألا يدركه إلا العميق، القادر على أن يفتدي بأنفس ما في هذا الوجود لكي يجده: الحياة" (ص206).

في حضن الصحراء يستيقظ حنينه، وما حنينه سوى نداء عميق يستعصي على التفسير، رغم أنه حميم، ورغم أن القلب أدركه منذ زمن بعيد. ها هو يستجيب له، فالصحراء خلاص، كما الحريّة، يهون ما يُبذل في سبيلها حتى الأرواح.

لكنّ الأمور تختلط على القرامنلي في آخر حياته، فنداءات الحريّة والصحراء اعترتها تبدّلات، فلم تعد الحريّة الخالصة هي مناط ذلك النداء، وإنما السعي وراء المجد الشخصي والشهوات الأرضية، وتلك كانت زلّة أحمد بك المأساويّة التي قادت إلى نهايته. ولعلّه يدرك هذا التحوّل كما يظهر في المونولوج غير المباشر التالي: "وسوف لن يغفر لنفسه أبدًا فيما لو اتضح أنّ هذا الاسم الغامض (النداء) ليس سوى الاسم المستعار لخطيئة اسمها

المجد لأنّ طلب المجد عمل رهين بخسارة الضمير [...] لا يدري يقينًا، ولكنّه على يقين أنّه يستطيع أن يتخلّى عن السلطان في أيّة لحظة، ولكنّه لن يتنازل عن الوسوسة. لن يتنازل عن النداء. لن يتنازل عن الحقيقة. وكان بإمكان رحلته أن تتوّج بالفوز منذ زمن بعيد لولا علّة اسمها الهوى. لولا سلطان اسمه النساء! لولا سلطان اسمه الجمال!" (ص348).

إذن فقد اختلط عليه النداء، ولم يعد يدري على وجه اليقين ماذا يعني بالنسبة له بعد أن كان واضحًا أمامه من قبل. الذي يعرفه بيقين أنّه لن يتخلّى عن تلك الوسوسة وذلك النداء مهما كلّفه الأمر حتى لو تخلّى عن السلطان نفسه. لقد أدرك متأخرًا أنّ عناصر أخرى تسلّلت إلى هذا النداء، منها المجد الشخصي، والهوى والجمال والولع بالنساء، هذه الأشياء هي التي حالت دون تتويج رحلته بالفوز. لا بدّ إذن من وسيلة تضع حدًّا لهذا التشويه الصارخ للنداء البعيد، إنّه يستشعر ذاك الخلل، ذلك المزج الصارخ بين الأرضي والإلهي، فيمتزج النداءان: "الحنين إلى الطين يستولي عليه الآن ليتحوّل أيضًا إلى نداء يتواصل في نداء آخر هدهده في القلب طويلاً: أوّلهما نداء الدم إلى الطين، وثانيهما نداء الروح إلى البعد الذي كان بعيدًا. أوّلهما نداء الطبيعة إلى نواة التكوين، نداء الجسد إلى الجذر، وثانيهما نداء الروح إلى الخفاء، إلى الربّ [...] وعهدهما ليس سوى العهد بين الروح والجسد" (ص393).

ولكنّ هذا العهد لم يدم طويلاً ولم يتيسّر، فقد حسم أحمد باشا القرامنلي خياراته ووضع حدًّا لحياته.

2 . "سفر الجامعة"

وبعد، فإن "سفر الجامعة"، الذي يقتبس منه الكوني في تصدير هذه الرواية (ص7) "بعيد ما كان بعيدًا، والعميق العميق من يجده"[22]، يظل على امتداد الرواية يغذّيها بأسرار

[22] انظر: الإصحاح السابع من سفر الجامعة، **العهد القديم**. عدد 24؛ راجع، العهد القديم على موقع: http://st-takla.org/Bibles/BibleSearch/showChapter.php?book=25&chapter=7

الوجود، ويخرجها من ربقة الأحداث التاريخيّة الشاخصة، وتمتاح هي منه فلسفة للحياة ولغزًا/ سرًّا تودعه شخصية أحمد باشا القرامنلي التاريخيّة. "العميق العميق" فقط من بوسعه أن يحلّ اللغز، لغز السعادة وألغاز الكون العصيّة على الفهم، وهو أيضًا لغز هذا النوع من الكتابة "الكونية" التي تجتمع على تأليفها الأضداد.

يختبئ "سفر الجامعة"، المنسوب إلى سليمان الحكيم، خلف هذا العمل الفني. ولا يقف الاستلهام من هذا المصدر عند حدود الآية (24) المقتبسة من الإصحاح السابع، بل يتعداها إلى آيات أخرى من إصحاحات مختلفة لهذا السفر، فرحلة القرامنلي العبثيّة لبلوغ السعادة المطلقة ودوام المجد والعافية محكومان بالفشل، فصاحب السلطان يفقد بصره ويستبدّ به المرض ويصير إلى الانتحار، وقد ورد هذا المعنى في "سفر الجامعة": "رأيت كلّ الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا الكلّ باطل وقبض الريح"[23]، وفي هذا المعنى آيات أخرى: "ما الفائدة للإنسان من كلّ تعبه الذي يتعبه تحت الشمس؟ دور يمضي ودور يجيء، والأرض قائمة إلى الأبد"[24].

في الرواية يقدم أحمد الأكبر على الموت مقبلاً برباطة جأش وبارتياح: "ذلك العيار الناري الذي حقق له الشفاء من داء اسمه العماء، ومن وباء اسمه الدنيا" (ص469).

يقابل ذلك في "سفر الجامعة": "يوم الممات خير من يوم الولادة. الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة"[25]، فالموت هو المخلّص من متاعب الدنيا وأهمها الولع بالنساء، مصدر الشرور والآثام. وقد رد هذا المعنى أيضًا في العدد 26 من الإصحاح السابع: "فوجدت أمرّ من الموت المرأة التي هي شباك، وقلبها أشراك، ويداها قيود. الصالح قدام

[23] **العهد القديم** "سفر الجامعة"، الإصحاح الأول، العدد 14.

[24] **ن.م.**، العدد 3، 4.

[25] **العهد القديم** "سفر الجامعة"، الإصحاح 7، آية 1–2.

الله ينجو منها"، ويرى القسّ أنطونيوس فكريان أن "الأمر الذي أتعب سليمان والخطيّة التي أسقطته هي النساء"[26].

و) كلمة أخيرة

عالم الرواية في نصّ "نداء ما كان بعيدًا" يختلف كثيرًا عن عالم التاريخ، فهو عالم غريب مهجّن من الواقع والخيال؛ لأنّ الكاتب وإن ظلّ أمينًا للأحداث التاريخيّة لا يغيّر فيها الشيء الكثير، إلا أنه يغني شخصيات الرواية وشخصية أحمد بك القرامنلي على وجه الخصوص بتركيبة نفسيّة فريدة لا يمكن للمؤرخ أن يتناولها، ويضيف إليها مواقف لم تحدث في الواقع ولم ينبئ عنها المؤرخون ولا صاحب **الحوليات الليبيّة**، المصدر الأساسي الذي اعتمده الكوني.

لم يكن لجوء الكوني إلى التاريخ بدافع النوستالجيا إلى القديم فقط، وإنما هو أيضًا استجابة لحسّ وكبرياء وطني. كانت المادّة التاريخيّة (على أهميتها في ذاتها) مجرّد منطلق لارتياد عوالم تخييليّة أو افتراضيّة تصدر عن مخيّلة الفنان التي تحوّل التراث التاريخي إلى تراث وجداني.

هذه الملحمة التي سطرها الكوني يعيد فيها إنتاج رؤيته وإدراكه للعالم عبر تشكيل اعتمد فنيًّا تقنية الراوي السلطوي (Authorial Narrator)، ليتمكّن من الإمساك بجميع خيوط العمل الفني: يستحضر الواقعة التاريخيّة، يفكّكها ويعيد صياغتها مفنّنة صوب هدفه الجمالي و/أو الأيديولوجي، ويحيطها بسيل من التأملات والشطحات، ويلحمها بالنظرات الفلسفيّة وبالرمز، فيقترب من الشخصيّة أو يبتعد عنها، يعلّق، يتماهى أحيانًا، وأحيانًا أخرى يجرّد نفسه بحياديّة.

---

[26] انظر التفسير على الموقع الإنترنتي أدناه:
http://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/23-Sefr-El-Gamaa/Tafseer-Sefr-El-Gam3a__01-Chapter-07.html

هذه البؤرة السرديّة أتاحت للكاتب حريّة في تأليف خليط لا نهائي من التاريخي والمعاصر، الواقعي والرمزي، الحلمي والأسطوري، الذاتي والموضوعي، حتى تغدو في رأيي رواية ليس عن أحمد القرامنلي وإنما رواية عن كلّ شيء، رواية الحياة. نجم ذلك عن توسيع رقعة الأحداث، واستبطان الدوافع، وإغراق الوقائع بالتعليقات والمعلومات ومحاصرتها بفيض من الخبرات والتأملات في الكون والإنسان وطبائعه وسلوكياته، بينما الصحراء والنداء و"سفر الجامعة" تمثل بحضور راسخ، وتضفر عالم الرواية بالرمز وترفعه من الواقع الفيزيقي إلى معارج الحريّة، الخلود والأبديّة.

ببليوغرافيا

– باروت، م.؛ عيد، ع. **الرواية والتاريخ– دراسة في مدارات الشرق**. اللاذقيّة: دار الحوار للنشر، 1991.

– برمو، عبد الرحمن. **الرواية التاريخية في الأدب السوري المعاصر**. دمشق: دار الشجرة، 1996.

– درّاج، فيصل. **نظريّة الرواية والرواية العربيّة**. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1999.

– درّاج، فيصل. **الرواية وتأويل التاريخ**. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2004 .

– السيد، محمود. **تاريخ دول المغرب العربي**. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 2000 .

– الشاروني، يوسف. "مصرع الماس وزخم اللعبة الروائيّة". **القصّة**. عدد 83 (1996)، ص30–40.

– صالح، صلاح. **الرواية العربية والصحراء**. دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1996.

– طه بدر، عبد المحسن. **تطور الرواية العربية الحديثة**. ط2. القاهرة: دار المعارف بمصر، 1968.

– فيرو، شارل. **الحوليّات الليبيّة**. ط2. ترجمة: محمد عبد الكريم الوافي. طرابلس: المنشأة العامّة للنشر والتوزيع، 1983.

– كتاني، ياسين. "ملامح التأثير الأدبي في المسرحيّة الشعريّة–بين شكسبير وشوقي". **جامعة**.عدد 5 (2001)، ص 314–335.

– الكوني، إبراهيم. **نداء ما كان بعيدًا**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2006 .

– الكوني، إبراهيم. **ملاحظات على جبين الغربة** . طرابلس: دار الكتاب العربي، 1974.

– هلال، محمد غنيمي. **في النقد المسرحي**. القاهرة: دار النهضة، 1965.

– وادي، طه. **مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية**. ط2. القاهرة: دار النشر للجامعات، 1997.

مواقع على الإنترنت:

- تفسير القس أنطونيوس فكري لـ"سفر الجامعة" من **العهد القديم**:
http://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/23-Sefr-El-Gamaa/Tafseer-Sefr-El-Gam3a01-Chapter-07.html

- **العهد القديم**، "سفر الجامعة، الإصحاح السابع":
http://st-takla.org/Bibles/BibleSearch/showChapter.php?book=25&chapter=7

- عساف، زينب. "الصحراء بوصفها كنزًا" **معابر** (مجلة إلكترونيّة).27 تشرين الثاني، 2006:
http://www.maaber.org/issue_january07/books_and_readings6.htm